تاريخ القرآن

بين تساهل المسلمين وشبهات المستشرقين

بقلم : الدكتور إسماعيل أحمد الطحان

أستاذ التفسير المساعد

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

أذا كان للمسلمين تراث يعتزون به فليس هناك أعز عليهم من تاريخ القرآن، ذلك أن القرآن رسالة السماء إلى الأرض حملها المسلمون ليكونوا خلفاء الله في أرضه، وقادة هذا العالم، وبناة حضارته، وهداته الراشدين.

ومنذ تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم، بدأت أولى خطواته في دنيا الناس ليأخذ مسيرته، وأخذ المسلمون إذ ذاك يرصدون حركته، ولقد كان لمعاصريه جلي السيرة واضح القسمات والمعالم، فقد شاهدوا كيف تلقاه النبي وحيا منزلاً على مدى ثلاثة وعشرين عاما، لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة، حتى يقسم ابن مسعود رضي الله عنه ـ على أنه ما من آية نزلت من كتاب الله إلا وهو أعلم فيمن نزلت: وأين نزلت. وسئل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى (سلع) (١).

وحشدوا جهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم فتلقوه عنه حفظا في الصدور وتسجيلا في السطور، حتى غدت أعمالهم في العناية به والدفاع عنه جزءا من هذا التاريخ...

وما كاد ينتهي جيل الصحابة رضوان الله عليهم ممن شاركوا في صنع هذا التاريخ ـ وقد صاغوا حقائقه. ـ حتى تلقفته يد آمنت به. وأخرى منكرة له. وماجت به الأحداث، واختلفت به الأحوال، فغامت تلك الحقائق في ضباب الفتن، وكلما تطاول عليها الزمان طمرها تحت ركام من ضلال الأهواء، ووهم الرواة، وعزّ على الباحث المدقق أن يستخلص الحقائق من ذلك الحشد المختلط من الروايات، وكان حسب الذين أعادوا صياغة هذا التاريخ أن يرووا كل هذه الروايات آخذين أنفسهم بأمانة النقل غير مبالين بما بينها من تناقض، أو مجافاة للعقل والمنطق، ولم يكن نقد المتن والسند ـ على الرغم من الالتزام به منهجا في بحوث التشريع ـ ذا أثر واضح في عرض تاريخ القرآن، ومن ثم وجد خصوم الاسلام فرصتهم في تساهل المسلمين في عرض هذا التاريخ حيث

(١) قارن بما جاء في كتاب مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح/ ١٣٢.

ساقوه دون نقد الاخبار والرواة ـ فأثار المستشرقون ـ بمنهجهم الاستشراقي الذي يقوم على جمع الآراء والظنون والأوهام ـ شبهات حول القرآن، تحاول أن تجتث أصوله، لتأتي على قواعد هذا الدين، وهم قد نصبوا أنفسهم للقضاء عليه.

وكم كان حريا بالمسلمين أن يدركوا خطر هذا التاريخ، فليس تاريخ كتاب فحسب، بل وتاريخ دين، وليس تاريخ دين فحسب، بل وتاريخ حضارة استوعبت البشرية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وإن من يوطد صلته بهذا التراث بحثا ودرسا، وينقب في كتب الأقدمين والمحدثين ـ على حد سواء ـ ليجد تشابها في كثير مما تناولته من جوانب هذا التاريخ، وسر هذا التشابه هو وحدة المصادر التي استقوا منها تلك المعارف، وقد تناقلوها على علاتها دون جهد يذكر من نقد رواية أو تعليق عليها، وان تسنى لبعضهم ذلك فهي لا تزيد عن نظرة عجلى لا تشفي غلة ولا تقيم الحقائق على وجه مقبول، وكثيرا ما كانوا يعفون أنفسهم عناء البحث بالاحالة على مصادر هذه النقول.

ولا يعز عليه أن يدرك بما لا يقبل الشك ـ أن طريقة عرض هذا التاريخ. على هذا النحو من الروايات المختلطة والتساهل في نقدها أغرى المستشرقين بالصيد في هذه المنابع العكرة، ولم يتأب عليهم الصيد لقرب تناوله من أيديهم.

ولربما رأى الناس فيما قام به علماء المسلمين من التصدي لهذه الشبهات وتنفنيدها عملا مشكورا، وإنه لكذلك ـ ولكنه لا يبرىء ساحة أولئك الذين شاركوا في صنعها بعرض هذا التاريخ وفتحوا أمام خصوم الاسلام أبوابا يلجون منها إلى ساحته، وما كان اغنانا عن كل هذا لو أحسنا عرض هذا التاريخ، وكان بحسبنا أن نتوفر على رد مطاعنهم المختلقة، وما أكثرها ـ بدل أن نجمع على أنفسنا سوء العرض وكيد الخصوم.

وبحسبي أن أقدم بعض هذه الروايات من مظانها وما أفرزته من شبهات ومطاعن في القرآن لنرى إلى أي حد كان مبلغ إساءتنا وكم كان صوابا أن نعدل عنها إلى غيرها أوثق منها، وأدنى أن تأتي بالحقيقة على وجهها.

روايات وشبهات حول تدوين القرآن

جاء في الصحاح من كتب السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع القرآن في صدره حفظا، ثم ظاهر الحفظ وأكده بكتابة النص القرآني، فاتخذ كتابا للوحي بلغت عدتهم. على ما جاءت به الروايات، ثلاثة وأربعين، ودلتنا الروايات أيضا على أن أول من كتب له بمكة هو عبدالله بن أبي سرح، وكان من كتابه الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وابان ابنا سعيد بن العاص بن أمية وغيرهم. وكان زيد ألزم كتاب الوحي للنبي

صلى الله عليه وسلم (٢) فقد روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين. . . والمجاهدون في سبيل الله) . . قال النبي: ادع لي زيدا، وليجيء باللوح والدواة، والكتف أو الكتف والدواة، ثم قال اكتب: (لا يستوي القاعدون) وخلف ظهر النبي عمرو بن أم مكتوم الاعمى. قال يا رسول الله فما تأمرني ، فإني رجل ضرير البصر ، فنزلت مكانها (غير أولي الضرر) (٣)

وفي كتب السنة كثير من الأحاديث تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يملي القرآن على كتاب الوحي، ويقفهم على ترتيب الآيات ومكان كل آية من سورتها، وأختها، ففي جامع الترمذي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السورة ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء منه دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا، وكذا (٤)

وفجأة تغيم هذه الحقائق في ضباب روايات هزيلة كتلك التي يذكرها السيوطي في إتقانه يقول: حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان ابن عيينه عن الزهري عن عبيد عن زيد بن ثابت قال «قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن قد جمع في شيء».

وعلى الرغم من الفرق الواضح بين التدوين المجرد، والجمع المراد به ضم المتفرق، وهو ما يمكن أن تحمل عليه هذه الرواية كما قال الخطابي: أي لم يجمع في مصحف انتظارا لبلوغ الوحي تمامه، وهو ما لم يدركه النبي لقرب وفاته من ختام ما أوحي إليه. فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم الله خلفاءه الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الامة. (٥)

وكذلك ما قيل في نقد هذه الرواية من أن (إبراهيم بن بشار) هذا ليس بالمتقن وله مناكير، وأن (عبيد) الذي روى عنه الزهري مجهول في كتب الرجال والطبقات (٦)

على الرغم من كل هذا فإن هذه الرواية أرجح في نظر المستشرقين لمطابقتها ما روى من خوف عمر، وأبي بكر، رضي الله عنهما ، لما استحر القتل بالقراء في موقعة اليمامة، فلو كان القرآن قد كتب وجمع لما كانت هناك علة لخوفهما. (٧).

وتتظاهر الروايات الهزيلة في هذا الاتجاه كتلك التي يوردها ابن أبي داود: حدثنا أبو

---

(٢) راجع تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني/ ٤٢.
(٣) البخاري ٥/ ١٨٣.
(٤) الترمذي ١١/ ٢٢٥.
(٥) الاتقان ١/ ٥٧.
(٦) دراسات في القرآن: د. السيد خليل / ٨٨.
(٧) آرثر جفري: كتاب المصاحف / ٥.

الربيع قال أخبرنا ابن وهب، قال أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال: بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير فقتل علماؤه يوم اليمامة الذين قد وعوه فلم يعلم بعدهم ولم يكتب.. (٨)

وكلما عثر المستشرقون على تلك الروايات راحوا يؤكدون من خلالها فكرة عدم تدوين الوحي في حياة النبي، حتى راح «بلاشير» يصدق خرافة «كازانوفا» في التأثيرات الألفية على عقل محمد ومؤداها - أن المسيح يحكم ألف سنة على الأرض قبل قيامة الموتى وأن محمدا ينتمي إلى طائفة مسيحية تعتقد بأن المسيح نفسه قد بشر بنبي اسمه «أحمد» وهذا الاسم صيغة أخرى لاسم (محمد). ولما كان القرآن قد أنذر بيوم القيامة القريب، ونهاية العالم وبأن النبي قد يرى بنفسه عقاب الكافرين، فلم يكن هناك من داع إذا لتدوين الوحي في حياة النبي إما للاعتقاد بأن النبي لن يموت قبل قيام الساعة. وإما للاعتقاد بأن الساعة وشيكة الوقوع. (٩).

ولم تكن نيات المستشرقين بخافية من وراء هذا القول، فإن وراءه التشكيك في نص القرآن، لأن التسليم بعدم تدوين الوحي سيسلم أمره لذاكرة المسلمين، وهي مهما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تمسك كل ما فيها لفترة طويلة، وعندئذ يكون شأن القرآن كشأن الشعر المروي عرضة للتغيير والتبديل.. (١٠)

وربما كان المستشرقون لا يجهلون علة خوف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - من أن الوحي - على الرغم من تسجيله بمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم في حياته - لم يأخذ شكله النهائي في وحدة مرتبة الآيات والسور على هيئته المحفوظة في الصدور، وهؤلاء الصحابة هم الشهود العدول على وثاقة النص المكتوب الذي لم ينته بعد إلى شكله المطلوب، فخشيا إن استحر بهم القتل في مواطن أخرى أن يعز جمع القرآن في لقاء وثيق بين المحفوظ والمكتوب. (١١)

وإذا استعصى عليهم اقتلاع فكرة هذا التدوين من خلال هذه الروايات لجأوا إلى روايات أخرى تعطي بمنطوقها أو مفهومها تعزيزا لهذه الشكوك.

ومن تلك الروايات ما شاع في كتب المسلمين من أن الأدوات التي سجل عليها الوحي إبان عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت من المواد الخشنة كالأحجار، والعظام، وجريد النخل، وقد جاء ذكر هذه الأدوات في روايات مختلفة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عند جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه حين كلفه أن يجمعه فقال (فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف، والعسب، واللخاف، وصدور الرجال.

---

(٨) المصاحف / ٢٣.
(٩) القرآن: بلاشير ترجمة رضا سعادة / ٢٩، ٣٠.
(١٠) راجع أثر القرآن في الدراسات النحوية: د. عبدالعال سالم / ٤.
(١١) راجع من قضايا القرآن: د. اسماعيل الطحان / ٦٦.

وفي رواية أخرى (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والعسب واللخاف وصدور الرجال).

وفي رواية ثالثة (فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع ومن الاضلاع).

وفي رواية رابعة (فجمعت القرآن من الأكتاف، والأقتاب والعسب وصدور الرجال).

وفي رواية خامسة (فقمت فاتبعت أجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب، والعسب، وصدور الرجال (١٢).

وهذه الروايات تشير إلى أن هذه الأدوات كانت مما يكتب عليه الكاتبون من الصحابة لأنفسهم، أما ما كتب عليه الوحي في بيت النبي فتشير إليه رواية أخرى لزيد أيضا يقول: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع) - وهي جمع رقعه، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد».

كما تشير رواية البخاري عن البراء إلى اللوح والكتف.

وكانت هذه الروايات مرتعا خصبا أشبع نهم المستشرقين في إثارة الشبهات حول القرآن فقد رأوا في تلك الأدوات استحالة مادية على استيعاب النص القرآني كله، فإن نسخة كاملة منه تشغل حيزا كبيرا من الفراغ، ومن ثم قال (بلاشير): أن فكرة تدوين مقاطع الوحي الهامة على تلك المواد الخشنة لم تنشأ إلا بعد إقامة محمد في المدينة، وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان متخلفا بسبب عدم ثبات المواد والطرائق المستعملة لذلك التدوين (١٣).

وهكذا يحاول (بلاشير) أن يهدم فكرة تدوين الوحي، فيجعل هذا التدوين - على أحسن الفروض - جزئيا لبعض مقاطع الوحي الهامة التي نزلت في المدينة فحسب، فضلا عما يلحقها من محو أو تشويه بسبب رداءة المواد المستعملة في هذا التدوين، لينتهي إلى ما قرره المستشرقون سلفا من أن حفظ القرآن ونقله موكول إلى ذاكرة حفاظه، وقد مات منهم كثير قبل جمعه.

وإني لأعجب من حرص السالفين والخالفين على تناقل هذه الروايات، وكأن هذه الأدوات هي الحقيقة المقررة في قضية تدوين القرآن فحسب، على أن الواقع كان على خلاف ذلك، إذ لا يعقل أن العرب لم يعرفوا وسيلة للتدوين إلا قطع الأحجار، والعظام، وجريد النخل، وإذا كان فكم تحتاج آيات القرآن التي سجلت بمكة - وهي ما يقرب من ثلثي القرآن - من هذه الأدوات الخشنة؟ إنها تحتاج إلى حمل قافلة من العير.

---

(١٢) كتاب المصاحف / ٨، ٩، ٢٠.
(١٣) القرآن: بلاشير / ٢٩.

ولم نعلم من أنباء الهجرة أن قافلة من العير فرت قبل النبي، أو معه وعليها ذلك الحمل الغريب من الأحجار (١٤).

إن أقرب الأشياء إلى الواقع أن العرب كانوا يعرفون من وسائل الكتابة أدواتها اللينة كالجلد والورق وبخاصة إذا تصورنا أن مكة كانت تمثل بيئة تجارية في أرض الجزيرة، تقوم التجارة فيها على توثيق العقود، وتدوين الحسابات.

وإذا تذكرنا أمر الصحيفة التي كتبتها قريش وثيقة لمقاطعة بني هاشم، وقام نفر منهم لشق تلك الصحيفة الظالمة، فوجد أن الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك أللهم) وكان الشق وأكل الأرضة آكد دليل على أنها كانت من الأدوات اللينة، وكان من الصحف غيرها كثير بالمدينة كصحيفة صلح الحديبية، ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحكام لدعوتهم إلى الإسلام، ورقاع الوحي التي ألف زيد منها القرآن في بيت النبي، وبعض مخطوطات الصحابة التي كتبوا فيها القرآن على عهد النبي وأمر عثمان رضي الله عنه بإحراقها بعد نسخ مصاحفه.

وكيف لا يعرف المسلمون هذه الأدوات اللينة وقد جاوروا جاليات كبيرة من أهل الكتاب وفي أيديهم كتبهم يتدارسونها، وقد تكررت إشارات القرآن إلى هذه الكتب، كما خاطب القرآن العرب بأسماء هذه الأدوات اللينة كالصحف والقراطيس في قوله تعالى:

«إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» (١٥) وفي قوله تعالى: **«ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين»** (١٦) وفي قوله تعالى: **«قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا»** (١٧)

هذا. ولا ننفي ما ورد في تلك الروايات من هذه المواد الخشنة وأن بعض القرآن ربما قد كتب عليها، ولكن ننفي أن تكون هي الوسيلة الوحيدة أو الأكثر استعمالا في كتابة القرآن، فلعل استخدامها كان لضرورة كندرة الأدوات اللينة في ظرف ما، أو استخدامها بصورة مؤقتة لعدم تيسر غيرها فور نزول الوحي، ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن وهي الرقاع المشار إليها في حديث زيد (١٨).

---

(١٤) قارن بما جاء في كتاب (عن القرآن) لمحمد صبيح / ٨٦.
(١٥) ٨٧/ ١٨، ١٩.
(١٦) ٦/ ٧.
(١٧) ٦/ ٩١.
(١٨) قارن بكتاب (القرآن المجيد) محمد عزة دروزة / ٧٧ ـ ٧٩.

وإذا تجاوزنا التدوين وأدواته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن تضافرت الروايات على وقوع التدوين ويسر أدواته بعد تنقيتها مما يشوبها من شبهات ـ إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، طالعتنا روايات عدة في قضية من قضايا التسجيل في عهده تشير إلى أن زيدا رضي الله عنه افتقد بعض آيات القرآن. .

ومن تلك الروايات المنسوبة إلى زيد رضي الله عنه قوله: «تتبعت القرآن أنسخة فافتقدت آية كنت أسمع الرسول يقرأ بها «لقد جاءكم رسول من أنفسكم.» (١٩) فالتمستها فوجدتها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري فأثبتها في سورتها.

وفي رواية أخرى قال زيد رضي الله عنه: «فتتبعت القرآن أجمعه فوجدت آخر سورة التوبة مع خزيمه بن ثابت.

وفي رواية ثالثة قال زيد رضي الله عنه: «دعاني أبو بكر رضي الله عنه أن أجمع القرآن. . فجعلت أتتبع القرآن. ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم أجدها عند أحد. فوجدتها عند رجل من الأنصار وهي قوله تعالى: **«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. . .»** (٢٠) فألحقتها في سورتها.

وفي رواية رابعة قال الزهري حدثني خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت: قال: «فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرأ بها «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. . .» فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة فألحقتها في سورتها. . . وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين أجاز الرسول شهادته بشهادة رجلين.

وفي رواية خامسة عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبدالله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة (٢١) بآيتي آخر سورة التوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر من معك على هذا؟ قال: لا أدري. والله إني أشهد أني سمعتها من رسول الله ووعيتها وحفظتها. فقال عمر، وأنا أشهد، ثم قال عمر: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فيها، فألحقتها في آخر براءة.

وفي رواية سادسة عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال:

لما انتهوا إلى قوله تعالى: **«ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون)** (٢٢) **ظنوا أن السورة قد انتهت، فقال أبي إن رسول الله قد أقرأني بعدها آيتين (لقد جاءكم) وقال هذا آخر ما أنزل.**

---

(١٩) التوبة / ١٢٨.
(٢٠) الأحزاب / ٢٣.
(٢١) قيل الحارث بن خزمة ـ راجع لطائف الاشارات للقسطلاني / ٦٥.
(٢٢) التوبة / ١٢٧.

وفي رواية سابعة عن ابن وهب: جاء خزيمة بن ثابت فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما قال عثمان وما هما؟ قال:
«لقد جاءكم . . » قال عثمان وأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بهما آخر ما أنزل من القرآن، فختمت بهما براءة.
هذا ما أثبته ابن أبي داود في كتاب المصاحف (٢٣)
أما ما أثبته البخاري في صحيحه، ونقل عنه القسطلاني في (لطائفه)، وآخرون في كتبهم، ان زيدا رضي الله عنه قال:
(وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، ولم أجدها مع أحد غيره (٢٤).
وفي رواية الزركشي في (برهانه) وجدتها مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين (٢٥)
وذكر البخاري في باب فضائل القرآن، ان زيدا وجد عند خزيمة بن ثابت آية الأحزاب (من المؤمنين رجال).
هذه صورة لعدة روايات مضطربة في قضية من قضايا التسجيل القرآني تختلف في المفقود من الآيات: أهي آخر التوبة؟ أم آية من الأحزاب؟ أم كلتاهما؟
وفي الصحابي الذي وجدت عنده أيضا: أهو خزيمة بن ثابت الأنصاري؟ أم أبو خزيمة الأنصاري؟ أم الحارث بن خزيمة؟ أم ابن خزمة؟
وفي أي عهد كان هذا الحدث أفي جمع أبي بكر؟
أم في نسخ عثمان؟
ويحار الباحث في الاهتداء إلى حقيقة هذا الحدث، وتشتد حيرته أمام تعليقات الأقدمين على تلك الروايات.
ففي (إرشاد الساري) (٢٦) ينقل القسطلاني قول زيد رضي الله عنه: (وجدت آيتي التوبة مع خزيمة الانصاري) وهو ابن ثابت بن الفاكه الخطمي ذو الشهادتين.

وينقل القسطلاني عن ابن شهاب الزهري قول زيد: (وجدت آيتي التوبة مع ابي خزيمة الأنصاري) وهو ابن أوس بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار.

وفي رواية أخرى عن زيد أيضا: لما نسخنا الصحف التي كانت عند حفصه بأمر عثمان رضي الله عنه فقدت آية من الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الانصاري الذي جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين فأثبتها في سورتها. ولا يقال ثبوتها بخبر الواحد بل كانت متواترة

(٢٣) راجع كتاب المصاحف / ٧ - ٣١.
(٢٤) انظر لطائف الاشارات للقسطلاني / ٣٥.
(٢٥) انظر البرهان ١/ ٢٣٤.
(٢٦) راجع إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لشهاب الدين القسطلاني ٧/ ١٦٣.

عندهم، حتى قال عمر رضي الله عنه أشهد لقد سمعتها من رسول الله، وكذا قال أبي بن كعب، وهلال بن أمية.

وفي (عمدة القاري) قال الليث حدثني عبدالرحمن بن خالد عن ابن شهاب قال زيد: (وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الانصاري قال أبو الفرج: قوله: (أبو خزيمة) وَهْمٌ (٢٧).

وفيه أيضا: واختلف أصحاب إبراهيم بن سعد فقال بعضهم مع أبي خزيمة، وقال بعضهم: مع خزيمة.

وعن موسى بن إسماعيل: آية التوبة مع أبي خزيمة، وآية الأحزاب مع خزيمة.

وفيه أيضا: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني خارجة عن زيد بن ثابت: لما نسخنا المصاحف بأمر عثمان فقدت آية من الأحزاب لم أجدها إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين.

فإن قيل: إن الآية المفقودة التي وجدت عند خزيمة هي آخر التوبة، أجيب بأن لا دليل على الحصر، ولا محذور في كون كليتهما مكتوبتين عنده دون غيره (٢٨).

هذا ما حملته إلينا الروايات والتعليقات، ولربما أمكن من خلال هذه التعليقات استيضاح بعض الحقيقة، ولكن مما لا شك فيه ان هذا الخلط قد ترك آثارا سلبية على عملية جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، حتى قال بعض الباحثين، إن افتقاد آيات من القرآن على هذا النحو قصة مشكوك في رواياتها، أو ان عملية الجمع على الصورة المتداولة في كتب الأقدمين أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة (٢٩)

ولعل مرجع الشك لديه أن حادثة كهذه في أخطر قضية واجهت المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي جمع القرآن تأتي على هذا النحو من الغموض والاضطراب، فلا يتعين المفقود من الآيات، ولا يعرف الصحابي الذي وجدت عنده، ولا الزمن الذي حدثت فيه على التحديد!!

إن الغموض الذي أحاط بالآيات وبالصحابي ليس أخطر ما في هذه القضية، بل إن أخطر ما فيها ان يكون بعض هذا الحدث وقع عند نسخ عثمان رضي الله عنه للمصاحف ـ على ما تشير اليه بعض الروايات لأن هذا يهدم كثيرا من الحقائق المقررة في تاريخ جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه. ويعزز شكوك المستشرقين في أن أبا بكر حين واجه حركة الارتداد التي أودت بحياة كثير من حفظة القرآن استولى الاضطراب عليه بشأن القرآن. وأخذ يفكر في تكوين مصحف يضم المجموعات الفردية لدى الصحابة، ولكن النص الذي جمع وفقا لمبادرته بقي ذا طابع شخصي، ولا يبدو أنه فاق بنفوذه أيا من النصوص التي حققها غيره من صحابة النبي...

(٢٧) راجع عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ١٨/ ٢٨٢.
(٢٨) المرجع السابق ١٩/ ١١٦ المجلد العاشر.
(٢٩) محمد صبيح (عن القرآن) ٢١٧.

وقد تمت خطوة حاسمة بعد عشرين عاما إذ أقبلوا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان على جمع نص جديد يكون أوسع أساسا، وأشمل حصرا، وكان المنطلق مصحف أبي بكر فضموا إليه مقطوعات ظلت مبعثرة أو محفوظة غيبا فقط (٣٠).

ونحن أمام هذا الاضطراب على فرضين: إما أن نقبل ما تشير اليه الروايات من وقوع هذا الحدث لدى نسخ عثمان رضي الله عنه للمصاحف. وهذا الفرض يقتضي أن يكون جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه غير دقيق لخلو مصحفه من هذه الآيات. وان دعوى الكمال وتوثيق النص القرآني مما أحكم الخيال نسجه. أو مما أشاعته العقلية الاسلامية حول مقدساتها حتى صارت لدى المؤرخين المسلمين من الحقائق المسلمة المتوارثة.

كما يقتضي هذا الفرض أيضا أن يكون عمل عثمان رضي الله عنه في المصاحف جمعا جديدا استدرك فيه على ابي بكر رضي الله عنه ما فاته. ومن ثم ظل النص القرآني منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد عثمان رضي الله عنه موضع تزيد واضطراب مما لا يمكن من الثقة به.

وإما أن نرفض تماما كل ما تشير إليه الروايات من وقوع بعض هذا الحدث في عهد عثمان رضي الله عنه لما فيها من اضطراب يقعد بها عن مواجهة روايات يكاد الاتفاق عليها يبلغ بها حد الاجماع؛ تلك التي تؤكد ان القرآن في عهد ابي بكر قد تم جمعه كاملا على منهج دقيق من الضبط والاتقان يبعث على الثقة بكماله وتمامه، وان عمل عثمان من بعده لا يزيد عن كونه نسخ المصحف المجمع عليه في عهد أبي بكر في عدد من المصاحف وزعت على الأمصار.

وخلاصة تلك الروايات أن أبا بكر رضي الله عنه اتخذ الصحف المودعة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ركيزة جمعه، وطلب القرآن ممن عندهم محفوظا او مكتوبا، ليعارض المتفرق بالمجتمع وليشترك الجميع في علم ما جمع فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف. ولا يشك في أنه جمع عن ملأ منهم (٣١) وأن يشهد شاهدان من حفظ او كتابة على ما يجيء مخالفا لتلك الصحف او مفقودا منها.

ونادى عمر رضي الله عنه في الناس فجاءوا بما عندهم من القرآن، وكانت هذه المرحلة من الجمع مظنة الاختلاف في النص القرآني او فقد شيء من صحفه، لما انتهج فيها - لأول مرة - من عملية مراجعة النص المكتوب باملاء النبي وبين يديه على المحفوظ في صدور الناس او المكتوب لديهم.

وليس بمستبعد أن تفقد بعض رقاع الوحي المودعة في بيت الرسول صلى الله عليه

(٣٠) القرآن (بلاشير) / ٣٠، ٣١.

(٣١) راجع البرهان ١ / ٢٣٨ وقارن بكتابنا من قضايا القرآن / ٦٧.

وسلم، وأن تكون عند بعض الناس مكتوبة، محفوظة عند الجميع. فلا غرابة في أن يفتقد زيد رضي الله عنه آخر التوبة مكتوبة؛ فيطلب رقعتها ممن عنده اذا علمت ان هاتين الآيتين نزلتا بمكة وموضعهما من الترتيب بعد آيات من سورة مدنية لم تتكامل الا في السنة التاسعة من الهجرة.

وربما كانت آية الأحزاب قد اعتراها الفقد كذلك لسبب أو لآخر.

ولما كان اشتراط شاهدين مسوغ قبولهما - واختلف العلماء في تحديد طبيعة هذين الشاهدين، أهما شاهدان من حفظ على المحفوظ، وشاهدان من كتابة على المكتوب؟ أم يكفي شاهد من حفظ وشاهد من كتابة على النص المفقود او المختلف فيه؟

ومن ثم كان على القائلين بشاهدين من كتابة على المكتوب أن يلتمسا رجلا يصلح لذلك، فكان خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين أصلح من تلصق به هذه الواقعة ليصدقوا ما توهموه!!

ولا بأس عند الآخرين أن يكون (أبو خزيمة الأنصاري) فهو شاهد من كتابة. ومعه شهود من حفظ كثيرون.

ولا أحسب الاضطراب في هذه القضية إلا من هذا الباب وليس أدل على ذلك من نقل هذه الصفة إلى (أبي خزيمة) على ما جاءت به بعض الروايات (٣٢) والا فأي مصادفة تجمع بين رجلين أحدهما (أبو خزيمة) والآخر (خزيمة) لا يفترقان الا في الكنية ليكون احدهما. او كلاهما بطل العثور على المفقود. حتى الرجل الثالث - على ضعف روايته - (خزيمي) ايضا باسم الحارث بن خزيمة.

وسواء اكان هذا او ذاك، او كلاهما وسواء اكان المفقود آخر التوبة، ام آية من الأحزاب، أو كلتيهما، فان هذه الواقعة لا تصدق إلا في جمع ابي بكر رضي الله عنه بحكم طبيعة هذا الجمع ومنهجه.

أما عمل عثمان رضي الله عنه فهو - على ما أشرنا اليه من قبل - ليس سوى نسخ. مصحف أبي بكر المجمع عليه، في عدد من المصاحف لينشر النص القرآني المجموع في عهد أبي بكر المأخوذ مما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم باملائه، حين دعت الضرورة إلى نص مكتوب يكون للناس إماما ليحسم الخلاف حول ما اعترى القرآن على ألسنتهم من تحريف بالزيادة والنقص واستبدال لفظ بلفظ، وليمتاز به التنزيل عما اختلط به من التأويل في المخطوطات المتداولة، وما جرى على ألسنة العامة توهما أنه من الوحي المنزل وليكون مرجع الناس في الأخذ بالمستقين المعلوم من نصوص الوحي المنزل. وكل نص خالف عنه ترفض قرآنيته، بل وكل مصحف عداه ليست له شرعية البقاء معه. ومن ثم وجب إحراقه وقاية من كل خلاف، وحماية من أي اختلاط (٣٣).

---

(٣٢) انظر البرهان ١/ ٢٣٤.

(٣٣) التفصيل في كتابنا من قضايا القرآن / ٧٧ - ٧٩.

ولا جديد في عمل عثمان رضي الله عنه سوى أنه مجرد مصاحفه من الاعجام، (النقط) ليختصر اثبات التنزلات المتعددة للنص القرآني في لفظ واحد اذا احتملهما رسم واحد كلفظ (تتلو)، و(تبلو) . إذا تصورت الرسم بدون نقط، وما لم يحتمله رسم واحد فرقه على المصاحف فأثبت في بعضها على صورة، وفي بعضها الآخر على صورة أخرى مثل قوله تعالى: «تجري من تحتها الأنهار» (٣٤) بإثبات (من) في المصحف المكي، وبحذف (من) في المصحف الكوفي الذي بإيدينا (٣٥)

وكذلك كتبه على رسم قريش، فقد قال عثمان رضي الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة، عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن (في الرسم) فاكتبوه بلسان قريش (أي بطريقتهم) فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا. وهكذا احتفظت كلمة (التابوت) التي تكتب (التابوه) في المدنية، بشكلها المكي بتاء مبسوطة (٣٦).

وقد تضافرت الروايات على أن عثمان رضي الله عنه أرسل إلى حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أمينة المصحف المجموع في عهد أبي بكر والمودع لديها منذ وفاة أبيها عمر بن الخطاب، يطلب إليها أن ترسل به إليه، وطلب إلى زيد بن ثابت والثلاثة القرشيين أن ينسخوه في عدد من المصاحف.

ولا التفات إلى رواية أحادية جاء فيها أن عثمان رضي الله عنه جمع مصحفا ثم عرضه على الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها. إذ لا يسوغ في منطق العقل أن يعيد عثمان عملا فرغت الأمة منه فضلا عن أنه لن يظفر بإجماع الصحابة الذين ظفر بهم مصحف أبي بكر لقلة عددهم إذ ذاك بعد أن استشهد منهم من استشهد.

ولعل مستند هذه الرواية، رواية أخرى أو هي منها سندا جاء فيها أن حفصة رضي الله عنها حين أرسل إليها عثمان رضي الله عنه. يطلب الصحف أبت أن تدفعها إليه. حتى عاهدها ليردنها إليها فبعثت بها إليه أخيرا (٣٧).

وتصيد المستشرقون رواية الامتناع هذه ليعللوا سبب المنع بأن حفصة قد ورثت هذه الصحف عن أبيها ذمة مالية شخصية إذ أن المصحف الذي بدأه أبو بكر في حياته لم ينته إلا في عهد عمر لقصر حياة أبي بكر في الخلافة، ومن ثم رجحت لديهم رواية ان عمر هو اول من جمع القرآن على حد ما زعمه ابن سعد في (الطبقات) . . . وان دوافع هذا الجمع لدى أبي بكر بمشورة عمر كانت الرغبة في تملك نسخة من القرآن حتى لا يكون رئيس الجماعة في وضع أقل من بعض الصحابة الذين يملكون نسخا منه، فكلف

---

(٣٤) التوبة / ١٠٠.
(٣٥) كتاب المصاحف / ٤٧.
(٣٦) كتاب المصاحف / ١٩.
(٣٧) راجع كتاب المصاحف / ٩.

أحد كتاب الوحي ممن سبق ان استخدمهم محمد في هذه الوظيفة بأن يهيئه لهما . . ولم يكن في ذهن أبي بكر عمر أمر فرض مصحف إمام على جماعة المؤمنين (٣٨).

وهكذا أراد المستشرقون أن يضفوا طابع الشخصية على هذا العمل ليجردوا هذا المصحف من كل ما تميز به من صفة التواتر وقطعية الثبوت، ليستوي مع غيره من مخطوطات الصحابة، وبالتالي فليس هو أولى منها بالالتزام والمتابعة (٣٩) حتى إذا جاء عثمان ليفرض مصاحفه التي حوت ما كان في مصحف ابي بكر وعمر. مع ما ضمه اليها من مقطوعات ظلت مبعثرة او محفوظة غيبا ـ لم يستطع ذلك دون مقاومة، فان الصحابة الذين بذلوا أنفسهم في خدمة محمد حتى التضحية بالنفس مثل ابن مسعود قد شعروا بالجور إذ تبينوا أن نصوصهم لم تعتمد أساسا للمصحف الرسمي (٤٠).

وكان وراء هذه المزاعم روايات أوردها ابن أبي داود تشير إلى أن ابن مسعود رضي الله عنه عارض أمر عثمان رضي الله عنه. وأمر الناس في الكوفة أن يتمسكوا بمصحفه وقال: كيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت من (في) رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤ ابتان (٤١).

وعلى الرغم من توهين العلماء لهذه الروايات التي صورت معارضة ابن مسعود ـ فإن أقصى ما تشير إليه أنه عارض هذا العمل لظنه أن هذا المصحف عمل جديد، انفرد به زيد، وكيف يعزل هو عنه؟ وهو أولى به منه لسبقه في الإسلام وقدمه في الأخذ عن فم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أيقن أن هذا المصحف نسخة مما جمعه أبو بكر رضي الله عنه. ولم ينفرد زيد بنسخه بل شركه فيه آخرون طابت نفسه وأعلن رضاه وموافقته(٤٢).

ولا يعني المستشرقين أن وافق ابن مسعود، أو ظل على معارضته، فإن الروايات أمكنتهم أن يديروا حديثهم على نحو ما سبق وأن ينكروا على عثمان عمله واعتبروه (هتكا للقدسيات باتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الاتقياء الموحيات التي جمعت عن لسان محمد نفسه وفي حياته (٤٣).

روايات وشبهات حول القراءات

زعم المستشرقون ان ما فعله عثمان بمصاحف الصحابة لم ينه مشكلة الاختلاف حول النص القرآني، فإن ما نجا من هذه المصاحف مدونا أو محفوظا ظل يعارض

---

(٣٨) انظر المدخل الى القرآن: بلاشير / ٣٣ ـ ٣٦، وقارن بالقرآن لبلاشير / ٣٠.
(٣٩) تاريخ القرآن د. عبدالصبور شاهين / ١١٠.
(٤٠) القرآن (بلاشير) / ٣٤، ٣٥.
(٤١) المصاحف / ١٦.
(٤٢) المرجع السابق / ١٨.
(٤٣) القرآن بلاشير / ٣١.

بوجوهه المختلفة نصوص مصحفه ويقفنا على مدى الحرية التي منحها محمد لاصحابه في قراءة نصوص القرآن بمقتضى نزوله على سبعة أحرف. فلم يكن نص القران بحرفه هو المهم. وإنما المهم هو روحه. وان القراءة التي تقوم على الترادف المحض أمر لا بأس به.

وكلما اندمجت في كيان المجتمع الإسلامي عناصر غير عربية كانت الوجوه المختلفة تتكاثر حتى نشأت طائفة منها على أساس المصحف العثماني لخلوه من النقط والشكل، إذْ كان القارىء ينقط ويشكل النص على ما يختار من حروف (الهجاء) والشكل حسب ما يتراءى له من معنى الآيات.

ومن هنا وجدت نظرية (القراءة بالمعنى) لديهم ما يسوغها في هذه الأحرف السبعة، وكانت ولا شك أخطر النظريات في تاريخ القرآن، إذ كانت تكل تحديد النص إلى هوى كل إنسان (٤٤).

هكذا صور المستشرقون (قضية القراءات) على أنها اختيار محض، وتصرف غير مسؤول في ألفاظ القران ومعناه، وأثاروا من خلال هذا التصور شكوكا حول النص القرآني المسجل في صحة معناه. وسلامة ألفاظه من التحريف والتبديل.

وأيدوا هذه المزاعم، بروايات تصيدوها من هنا، وهناك كتلك التي رووها عن عمر رضي الله عنه من قول النبي (القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذابا، أو عذابا مغفرة). وعن أبي هريرة رضي الله عنه من قول النبي: «اقرأوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة» (٤٥)

كما رووا عن أبي شامة قوله: أنزل القرآن أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب الآخرين أن يقرأوه بلغاتهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب (٤٦)

وساقوا لتعزيز هذه المزاعم نصوصا كتلك التي نسبوها إلى أنس رضي الله عنه فيما حكاه الأعمش، قال: سمعت أنس بن مالك يقرأ (لولوا إليه يجمزون) فقيل له: وما (يجمزون) إنما هي (لولوا إليه يجمحون) فقال: (يجمحون، ويجمزون. ويشتدون واحد) (٤٧).

وما حكاه الأعمش كذلك عن أنس أيضا قال: قرأ أنس (وأصوب قيلا) فقيل له يا أبا حمزة إنما هي (وأقوم قيلا) فقال: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد (٤٨).

وكتلك التي نسبت إلى مالك رضي الله عنه فيما حكاه ابن وهب قال: قيل لمالك

---

(٤٤) انظر المدخل إلى القرآن. بلاشير / ٦٩، ٧٠، وانظر مقدمة المصاحف آرثر جفري / ٧.
(٤٥) راجع هذه الروايات في مقدمة تفسير الطبري ـ تحقيق شاكر.
(٤٦) المرشد الوجيز: لأبي شامة / ٩٥.
(٤٧) الآية / ٥٧ من التوبة. انظر المحتسب لابن جني / ٧٢.
(٤٨) الآية / ٦ من الزمل. انظر المحتسب / ١٦٢.

أترى أن يقر بمثل ماقرأ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه (فامضوا إلى ذكر الله)، قال: ذلك جائز، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه» (٤٩).

وما نسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه أبو عبيد من طريق عون ابن عبدالله أن ابن مسعود أقرأ رجلا (إن شجرة الزقوم طعام الاثيم) فقال الرجل (طعام اليتيم) فرددها فلم يستقم بها لسانه فقال: أتستطيع أن تقول (طعام الفاجر)؟ قال نعم، قال: فافعل (٥٠)، كذلك ما نسب إلى ابن مسعود قراءة، انه قرأ قوله تعالى:

(اهدنا الصراط المستقيم) (أرشدنا) (٥١)

(ادع لنا ربك) (سل لنا ربك) (٥٢)

(فولوا وجوهكم شطره) (وجوهكم قبله) (٥٣)

(وجلت قلوبهم) (فرقت قلوبهم) (٥٤)

وكذلك ما نسب الى ابي بن كعب قراءة، أنه قرأ قوله تعالى:

«كلما أضاء لهم مشوا فيه» (مروا فيه، مضوا فيه) (٥٥)

«للذين يؤلون من نسائهم» (للذين يقسمون من نسائهم) (٥٦)

«وجلت قلوبهم» (فزعت قلوبهم) (٥٧)

وكذلك ما نسب الى ابن عباس رضي الله عنه قراءة أنه قرأ قوله تعالى:

«وان عزموا الطلاق» (وان عزموا السراح) (٥٨)

«لمن أراد أن يتم الرضاعة» (أن يكمل الرضاعة) (٥٩)

كذلك ما نسبت إلى علي رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى:

«فمن خاف من موص جنفا» (من موص حيفا) (٦٠)

«قد شغفها حبا» (قد شعفها حبا) (٦١)

---

(٤٩) النص المتواتر (فاسعوا إلى ذكر الله) الجمعة/ ٩، انظر المرشد / ١٠٥.
(٥٠) الآيتان / ٤٣، ٤٤ من الدخان، أنظر الاتقان للسيوطي ١/ ١٣٥.
(٥١) الآية / ٦ من الفاتحة انظر كتاب الشواذ لابن خالويه / ٢٥.
(٥٢) الآية / ٦٨ من البقرة. انظر البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٢٥١.
(٥٣) الآية ٤٤ من البقرة انظر. البحر ١/ ٤٢٩.
(٥٤) الآية / ٢ من الأنفال. انظر البحر ٤/ ٤٥٧.
(٥٥) الآية / ٢٠ من البقرة انظر البحر ١/ ٩٠.
(٥٦) الآية / ٢٢٦ من البقرة. انظر البحر ٢/ ١٨٠.
(٥٧) البحر ٤/ ٤٥٧.
(٥٨) الآية / ٢٢٧ من البقرة، انظر البحر ٢/ ١٨٣.
(٥٩) الآية / ٢٠٣ من البقرة، انظر البحر ٢/ ٢١٣.
(٦٠) الآية / ١٨٢ من البقرة، انظر البحر ٢/ ٢٤.
(٦١) الآية / ٣٠ من يوسف، انظر البحر ٥/ ٣٠١.

وكما أباح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرءوا اللفظ بمرادفه في المعنى فقد استباحوا لأنفسهم أيضا ـ في نطاق هذه الحرية ـ أن يزيدوا في النص القرآني ما يجعله أكثر وضوحا أو ينقصوه ليصححوا منه ما كانوا يعتقدون أنه غير صحيح، واستدلوا لذلك بما أورده ابن أبي داود في (كتاب المصاحف) من قوله:

في مصحف أبيّ وقراءته (إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت، او اعتمر فلا جناح عليه ان لا يطوف بهما) بزيادة (لا) (٦٢)

وفي مصحف ابن مسعود. وابن عباس وقراءتهما، (لا جناح عليكم أن تبغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) بزيادة (في مواسم الحج) (٦٣)

وفي مصحف ابن عباس وقراءته (إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه) بزيادة الضمير في (يخوفكم) (٦٤)

وفي مصحف ابن عباس أيضا وقراءته (وشاورهم في بعض الأمر) بزيادة (بعض) (٦٥)

وفي مصحف ابن عباس أيضا وقراءته (ولا جناح عليكم فيما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) بزيادة (أجل مسمى) (٦٦)

وفي مصحف عبدالله بن الزبير وقراءته (فيصبح الفساق على ما أسروا في أنفسهم نادمين) بزيادة (الفساق) (٦٧)

وفي مصحف عائشة، وحفصة، وأم سلمة رضي الله عنهن، وقراءتهن، (حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى وصلاة العصر) بزيادة (وصلاة العصر) وفي رواية (صلاة العصر) بدون عطف، وتأتي هذه الرواية مشفوعة بما ينسب إلى أبيّ، أو زيد بن ثابت ـ شك من الراوي ـ من قوله: هو (كذلك) أو ليس أشغل ما نكون عند صلاة الظهر في عملنا ونواضحنا (٦٨)

وروى بن أبي داود، قال: عن ابن أبي جمرة قال: كان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ (فإن آمنوا بالذي امنتم به فقد اهتدوا) وعن شعبة عن ابن ابي جمرة قال: سمعت ابن عباس يقول: لا تقولوا (بمثل) فان الله ليس له مثل، قولوا: (فان آمنوا بالذي امنتم به) (٦٩)

---

(٦٢) الآية / ١٥٨ من البقرة. انظر كتاب المصاحف / ٥٣.
(٦٣) الآية / ١٩٨ من البقرة انظر كتاب المصاحف/ ٥٤، ٧٤.
(٦٤) الآية/ ١٧٥ من آل عمران، انظر كتاب المصاحف / ٧٤.
(٦٥) الآية / ١٥٩ من آل عمران، انظر كتاب المصاحف / ٧٥.
(٦٦) الآية / ٢٤ من النساء، انظر كتاب المصاحف / ٨١.
(٦٧) الآية / ٥٢ من المائدة، انظر كتاب المصاحف / ٨٢.
(٦٨) الآية / ٢٣٨ من البقرة، انظر كتاب المصاحف / ٨٣ ـ ٨٧.
(٦٩) النص (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) / ١٣٧ من البقرة، انظر كتاب المصاحف / ٧٦.

ولا بأس عليهم كذلك ان يخالفوا نظم النص وترتيب كلمه ما دام لا يخل بالمعنى، واستدلوا لذلك أيضا بما رواه ابن ابي داود من قوله: (عن شعبة عن ابي نوفل بن ابي عقرب قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقرأ في صلاة المغرب (اذا جاء فتح الله والنصر) (٧٠)

وفي قراءة عبدالله بن مسعود (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار) (٧١)

وفي البرهان: قرأ أبو بكر رضي الله عنه (وجاءت سكرة الحق بالموت) (٧٢)

وبهذا انتهى المستشرقون إلى ما أرادوا من التشكيك في سلامة النص القرآني وقراءاته، ولئن شهد القرآن على غيره من الكتب السابقة بالتحريف، فان ما أصابه لم يكن أقل منها في ذلك.

وكان هذا الحصاد المر بعض غراسنا في منابت الغفلة حينا والتساهل حينا ، ولو ان الذين تناولوا قضية الأحرف السبعة . والقراءات تحروا فيها أصح الروايات ، واحتكموا فيما أشكل عليهم من أمرها إلى منطق سديد ، لبلغنا من أمرنا هذا رشدا .

ولكن بعض الذين فسروا الأحرف السبعة حطبوا فيها بليل، فبلغت أقوالهم فيها قرابة أربعين قولا جمعها السيوطي في (اتقانه) وكان هذا (السيلان) الفكري بعض المشكلة، وبعضها الاخر فيما نقرره دفعا لما اثارته من شبهات.

ولئن أعجلنا البحث عن أن نعرض لهذه الأقوال بالتفصيل فلا مناص من أن نلم بطرف منها لنقف على مدى الوهم الذي لف هذه القضية فيما يتصل بنظرية (القراءة بالمعنى).

جاء في تفسير الأحرف السبعة أنها سبعة وجوه من الخلاف عد منها (ابن قتيبة):

- الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها كقوله تعالى (ان كانت الا صيحة) (إن كانت إلا زقية).
- الاختلاف بالتقديم والتأخير:
- كقوله تعالى «وجاءت سكرة الموت بالحق» (سكرة الحق بالموت).
- الاختلاف بالزيادة والنقصان:

كقوله تعالى «ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى» (٧٣)

وعد منها (الفخر الرازي):

- الابدال.

كقوله تعالى «فاسعوا إلى ذكر الله» (فامضوا إلى ذكر الله).

---

(٧٠) الآية (إذا جاء نصر الله والفتح) ١/ من النصر ، انظر المصاحف/ ٨١ .

(٧١) الآية (على كل قلب) / ٣٥ من سورة غافر، انظر المصاحف / ٧٠.

(٧٢) الآية (سكرة الموت بالحق) ١٩ من سورة (ق)، انظر البرهان ١/ ٣٣٥.

(٧٣) راجع تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة / ٣٧، ٣٨ تحقيق السيد صقر.

وعد منها (ابن الجزري).
ـ الاختلاف في المعنى والصورة.
كقوله تعالى «وامضوا حيث تؤمرون» (واسعوا حيث تؤمرون).
ـ وعد منها (ابو بكر بن الطيب).
ـ ما تتغير صورته ويبقى معناه.
كقوله تعالى : «كالعهن المنفوش» (كالصوف المنفوش).
وعد منها (الدكتور صبحي الصالح).
ـ الاختلاف بابدال كلمة بكلمة :
كقوله تعالى : «كالعهن المنفوش كالصوف المنفوش» (٧٤).

وهم بهذا التصنيف والتمثيل يعدون هذه الوجوه المتقابلة كلها من الوحي المنزل بمقتضى الحديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» وبعضها كما ترى من الترادف.

وينسى ابن الجزري ـ وهو احد من صنفوا هذه الوجوه أنه قرر في (نشره) ان من يقول ان بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه.. نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة ايضاحا وبيانا، لانهم محققون لما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتب معه (٧٥)

ونعزز ما كان من أمر هذه الاضافات التفسيرية بما رواه الشهاب الخفاجي عن مصحف ابن عباس (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أب لهم). فمر عمر رضي الله عنه على غلام يقرؤها هكذا، فقال للغلام: حكها من صحيفتك، حيث ضل الغلام فلم يميز بين التنزيل والتفسير (٧٦)

ولقد رفض كثير من العلماء عد هذه المترادفات من الوحي المنزل، وتردد في قبولها آخرون. وتسامحوا في عدها من الآحاد ـ على فرض صحتها ـ لكنها في مواجهة المتواتر تعد باطلة.

وقد أضاف السيوطي ايضاحا لهذه القضية حين قسم القرآن إلى متواتر، ومشهور، وآحاد، وشاذ، وموضوع ثم قال وقد ظهر لي سادس يشبه من أنواع الحديث (المدرج) وهو ما زيد على النص على وجه التفسير، ومثل له بقراءة سعد ابن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) وقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج).

وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ (وان منكم إلا واردها الورود ـ الدخول):

(٧٤) راجع مباحث في علوم القرآن. د. الصالح / ١١٠.
(٧٥) النشر ١/ ٣٢.
(٧٦) راجع: نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض ١/ ٣٠٣.

قال الأنباري: قوله: الورود ـ الدخول تفسير من الحسن لمعنى الورود. وغلط فيه بعض الرواة فادخله في القرآن (٧٧).

ومن ثم كان عجبنا من صنع هؤلاء العلماء في عد هذه وأمثالها من وجوه الأحرف السبعة.. وما هي منها في شيء.

ويزداد عجبنا ممن يحاول الدفاع عن تلك الروايات فيقول: (ونحن على يقين من أن هذه الاوجه كانت مجازة من النبي قراءة ولكنها انتهت بجمع عثمان رضي الله عنه. فلم يعد من حق أحد أن يقرأ بها، وإنما تذكر من باب التفسير دون التلاوة، وذلك هو الشأن في كل ما ورد في مصاحف الصحابة من تغيير بالزيادة (٧٨).

فأي يقين هذا بعد ما تقرر من بطلان قرآنيتها؟

ثم إن الذين فسروا الأحرف السبعة بسبعة وجوه من الاختلاف اختلفوا فيما بينهم في تصنيف هذه الوجوه. وكأن اللاحق منهم رأى في استقراء من سبقه نقصا حمله على ان يسلك في طريقة استقرائه لها سبيلا مخالفا له.

والمتتبع لهذه التصانيف عند الرازي، وابن قتيبة، وابن الجزري، وابن الطيب، والدكتور الصالح يجد اتفاقا في بعض الوجوه واختلافا في بعضها الآخر مما يدل على انه يمكن الزيادة على سبعة أوجه، بمعنى اننا اذا اضفنا مجموع ما اتفقوا عليه الى مجموع ما اختلفوا فيه بلغت عدة الوجوه اكثر من سبعة، وليس واحد من هذه التصانيف اولى بالقبول من غيره، إذ أن كل واحد منها جاء عن استقراء ناقص في نظر مخالفه (٧٩).

هذا وقد جاء أيضا في تفسير الأحرف السبعة انها سبع لغات من لغات العرب. واختلف القائلون بهذا الرأي في تحديد هذه اللغات السبع، وفي كيفية وقوعها في النص القرآني، فقال ابن جرير الطبري: هن سبع لغات في حرف واحد وكلمة واحدة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإلي، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من النطق، وتتفق فيه المعاني وان اختلفت بالبيان به الالسن، كالذي روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي عن ابيه قال: قال جبريل اقرءوا القرآن، فقال ميكائيل استزده، فقال على حرفين حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال كلها شاف كاف. ما لم تختم أية عذاب برحمة، أو أية رحمة بعذاب، كقولك هلم وتعال) (٨٠)

وظاهر هذا القول أنه يفيد جواز القراءة بالمعنى، وكذا ما تعقب به هذا القول من أن

---

(٧٧) الاتقان ١/ ٧٧.
(٧٨) راجع: تاريخ القرآن. د. شاهين / ٨٩.
(٧٩) راجع كتابنا من قضايا القرآن / ٢٦ ـ ٣١.
(٨٠) راجع مقدمة تفسير الطبري ١/ ٥٧ وما بعدها.

ما جاء في هذا الحديث ليس من قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفي نوعها حتى يصبح الاستدلال بها على هذا المذهب، بل هي كما قال ابن عبدالبر - من قبيل ضرب المثل للحروف التي أنزل عليها القرآن من انها معان متفق مفهومها. مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافا ينافيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده.

وراح المستشرقون يؤكدون من خلال هذه النصوص نظريتهم في (القراءة بالمعنى).

وبقدر ما أسعدت هذه الروايات جماعات المستشرقين، فقد أساءت إلى كثير من الباحثين حتى عدها بعضهم أساطير يجب أن تزول من تاريخ القرآن احتراما لاعجاز اللفظ القرآني وبلاغة معناه في سياقه.

وإن شيئا من الفطنة والذوق السليم بدلان على أن لفظ (هلم) لا يتفق في مدلوله مع ما ساقه ابن جرير من ألفاظ زعم أنها مرادفة له من مثل (أقبل، وتعال، وإلي، وقصدي، ونحوي وقربي) فضلا عما بين هذه الألفاظ من تفاوت في المعنى، فأين لفظ (قربي) الذي يدعو أن شيئا أو شخصا بقرب آخر، من لفظ (إلي) الذي يعني النداء مع شيء من اللهفة؟ وأين لفظ (تعال) من لفظ (نحوي)؟ ألسنا نقول: (تعال نحوي) فنفيد معنى غير الذي يفيده لفظ (تعال) وحده (٨٢)

فأي اعجاز يبقى للقرآن مع الفاظ ياتي بها بشر مّا لا يحكم معناها، ولا تستقيم في سياقها، كأن يضع كلمة (فاجر) مكان (أثيم) في قوله تعالى: **«إن شجرة الزقوم طعام الأثيم»** على نحو ما نسب إلى ابن مسعود من أنه اجاز لأعرابي يعلمه أن يفعل ذلك، ولنا مع هذه الرواية وقفة أخرى.

وهل الأحرف السبعة شيء من هذا العبث والاستخفاف اللذين سوغا لأعرابي أن يقرأ **«إنا بعثنا نوحا إلى قومه»** فقيل له إنما هو **«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه»** (٨٣). فقال: ما بينهما إلا لجاجك..؟

وأين منه إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على البراء بن عازب حين علمه دعاء جاء فيه (ونبيك الذي أرسلت) فقال البراء (ورسولك الذي ارسلت) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا، ولكن (نبيك) وأنكر عليه أن يستبدل لفظ الرسول بلفظ النبي مع أن كليهما حق لا يحيل معنى إلا أن يكون لكلمة (نبي) موقع في هذا السياق ليس لكلمة (رسول) حمل النبي على منع هذا الاستبدال (٨٤)

الحق أن الأحرف السبعة ليست شيئا من هذا التبديل والتغيير. ولا هي بالتالي مستمسكا صالحا لما روجه المستشرقون من نظرية القراءة بالمعنى.

---

(٨١) راجع البرهان ١/ ٢٢١، الاتقان ١/ ١٦٨.
(٨٢) راجع: (عن القرآن): صبيح / ١٢٤.
(٨٣) الآية / ١ نوح.
(٨٤) راجع مناهل العرفان للزرقاني ١/ ١٨٢.

ولعل الذي رأيناه في تفسيرها يؤكد هذه الحقيقة ويستقيم بها على وجه مقبول يسيغه المنطق ولا تنكره الآثار.

إن تفسير هذه الأحرف لا يتأتى لباحث إلا في ظل معطيات نصوصها، وملابسات أحداثها، وان من أوضح تلك النصوص فيها حديث أبيّ بن كعب من رواية ابي كريب (لقي النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المراء فقال: إني بعثت إلى أمة أميين منهم الغلام والخادم، والشيخ العاسي. والعجوز فقال، جبريل فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف (٨٥)

فهذا الحديث بمنطوقة يشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث إلى أمة أمية من أفرادها من يعجز عن أداء النص القرآني على النحو المنزل وانه يسأل الله ان ييسر عليهم اداءه فأجيب إلى طلبه على أوسع ما يكون التيسير.

وان هذا الحدث وقع بالمدينة، فأحجار المراء موقع بقباء خارج المدينة (٨٦)

أما ملابساته فإن المجتمع المدني مجتمع غير متجانس بحكم تكوينه، وبسبب كثرة الوافدين إليه من الراغبين في الاسلام من أنحاء الجزيرة وخارجها (٨٧)

وان هذا الحدث كان - بداهة - بداية الترخيص بهذا التيسير، وقد عقب به النبي صلى الله عليه وسلم على كل خلاف رفع إليه في قراءة القرآن.

- وان كانت الروايات لم تبين لنا طبيعة هذا الخلاف، حتى يمكن الاستدلال منها على تفسير هذه الاحرف - كما ذكر به في كل مناسبة، اقتضت ذلك حتى تستفيض شهرة هذا التيسير ليقضي به على كل مماراة أو جدل حول القرآن.

وإذا أضفنا إلى ذلك بعض الحقائق اللغوية كتلك التي تتعلق باللغة التي نزل بها القرآن؛ أدركنا سر العجز عند هؤلاء العاجزين عن أداء النص القرآني. لقد توحدت لغة العرب في لغة (مثالية) اصطفتها قريش من لغات قبائل شتى، واصطنعها خاصتهم على اختلاف قبائلهم، لا عامتهم - أداة التعبير في محافلهم وأسواقهم ينشدون بها شعرهم، ويرسلون بها خطبهم، وتوافق الاسلام حين ظهوره مع تلك اللغة المصطفاة فنزل بها قرآنه، فقوى من وحدتها، وزاد من شمولها، غير ان هذه الوحدة اللغوية لم تقض على ظاهرة تعدد اللهجات قبل الاسلام ولا بقائها بعده بل ظلت هذه اللهجات تؤدي دورها في القبائل أداة للتخاطب لمن لم يسعفه لسانه أن يتكلم بتلك اللغة المثالية.

وبازاء ظاهرة تعدد اللهجات التي لا يمكن دفعها. وقد عجز العامة من الناس عن اصطناع لغة القرآن في تلاوة آياته لجأ النبي صلى الله عليه وسلم الى ربه يسأله التخفيف

---

(٨٥) لفظ الحديث لأبي أسامة واسناده حسن صحيح. الطبري ١/ ٣٥.
(٨٦) المرجع السابق.
(٨٧) تاريخ القرآن. د. شاهين / ٤٢.

عنهم، فكانت الرخصة ان يقرؤ وه على ما تيسر لهم ولم يكلفهم تلاوته بغير اللهجة التي جرت بها ألسنتهم (٨٨)

وهذا ما لحظه جميع العلماء على اختلاف اتجاهاتهم في تفسير الأحرف السبعة ـ سببا في سن هذه الرخصة، قال أبو شامه لقد أبيح أن يقرأ القرآن بغير لغة قريش توسعة على العرب فلا ينبغي أن يوسع على قوم دون قوم، ولا يكلف أحد إلا قدر استطاعته، فمن كانت لغته الامالة، أو تخفيف الهمز أو الادغام، أو ضم ميم الجمع. أو صلة هاء الكناية، أو نحو ذلك فكيف يكلف غيره؟ وكذا كل من كان من لغته أن ينطق بالشين التي كالجيم في نحو (أشدق) والصاد التي كالزاي في نحو مصدر ونحو ذلك فهم بمنزلة الالثغ والارت، لا يكلف ما ليس في وسعه، وعليه أن يتعلم ويجتهد (٨٩)

وهذا الذي قاله أبو شامة، فقد سبقه إليه ابن قتيبه فقال:

كان من تيسير (الله) أن أمر (النبي) بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم فالهذلي يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) والأسدي يقرأ (تعلمون) بكسر تاء المضارعة، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز. ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه. فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعا في اللغات ومتصرفا في الحركات كتيسيره عليهم في الدين (٩٠)

غير أن العلماء حين يقررون ذلك لم يستخدموا المصطلحات اللغوية في حقيقتها، فنراهم يعبرون (باللغات) عن (اللهجات) ـ وهو وان كان جائزا على سبيل المجاز ـ الا انه تعبير مضلل في هذا المقام. لانه يخلط بين مفهومين لغويين هما (اللغة واللهجة) والامر يقتضي ان يكون التعبير بلفظ (اللهجة) لا (اللغة)، ذلك ان الرخصة راعت تيسير المشقة وهي مرتبطة باللهجات لا باللغات إذ أن اللهجة: صفات صوتيه تتعلق بطريقة أداء اللفظ وهي: تختلف من قبيله إلى قبيلة أخرى. كميل بعض القبائل إلى جهر الأصوات أو همسها. وشدتها أورخاوتها، وفكها أو ادغامها. وتخفيف الهمزة أو تسهيلها، واختلاف الحركات سواء في بنية الكلمة أو إعرابها وتلك الصفات هي التي يشق الانتقال منها إلى غيرها. (٩١) على حين تعني (اللغة): اختلاف الالفاظ ودلالتها وتلك لا موجب لمراعاتها لأن القرآن قد اصطفى ما شاء منها بعد أن استوعبته اللغة (المثالية) التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة، لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بلا دليل (٩٢)

---

(٨٨) راجع فقه اللغة د. صبحي الصالح / ٥٠، وفي اللهجات العربية: د. ابراهيم أنيس / ٤٣.
(٨٩) المرشد الوجيز / ٩٧.
(٩٠) تأويل مشكل القرآن / ٣٩، ٤٠.
(٩١) اللهجات: أنيس / ١٦ ـ ١٩.
(٩٢) علوم القرآن: الصالح / ١١٣ ـ ١١٥.

ومن هنا كان المقبول في تفسير الأحرف السبعة أن يراد بها (طرق الأداء التي تختلف بها لهجات العرب) على معنى أن القرآن أنزل على الترخيص للقارىء ان يقرأه على ما تيسر له من طريقته في الاداء دفعا للمشقة عليه.

وان لفظ (السبغة) لا يقف حائلا دون التوسعة المطلقة لأن الله جعل السبعة رمزاً إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد (٩٣)

وقد نسب السيوطي إلى القاضي عياض بن عمرو اليحصبي أن لفظ (السبعة) ليس مرادا به حقيقة العدد، وإنما يراد به الكثرة في الآحاد ككثـرة السبعـين في العشرات، والسبعمائة في المئين (٩٤)

ويؤنسنا في أن لفظ (السبعة) يعني السعة المطلقة ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه ان النبي كان يقرىء الناس بلغة واحدة فاشتد عليهم ذلك، فنزل جبريـل فقال: يا محمد أقرىء كل قوم بلغتهم (٩٥)

ويذهب بعض العلماء إلى أبعد من ذلك من أن الحروف السبعة ليست مقصورة على اللهجات العربية، بل تشمل جميع لهجات المسلمين في جميع بقاع العالم إلى يومنا هذا، فالمسلم أيا كانت لهجته وأيا كانت بيئته يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الـذي تعودتـه عضلات صوته في نطقه بلهجته دون نكير عليه أو استهزاء به (٩٦)

ولا أحسب ذلك إلا أن يكون في نطاق اللغة العربية، ومن فحوى روح الاسلام في التيسير على العاجزين، لا برخصة الأحرف في القراءات المسنونة .

ولا تعني هذه السعة حرية التصرف في الاداء بمقتضى اللهجـات دون توقيف من النبي، فقد راقب النبي هذه اللهجات فأجاز منها أفصحها. وورد بعضها مما يهبط بالنص القرآني عن مستوى فصاحته كالكشكشه القيسية - التي تجعل كاف المؤنث شينا - مثل: جعل ربش تحتش سريا، في قوله تعالى (جعل ربك تحتك سريا) والعنعنة التميمية - التي تجعل همزة (ان) عينا مثل: عسى الله عن يأتي بالفتح، في قوله تعالى (عسى الله أن يأتي بالفتح) (٩٧.

وكان ما أقرأ به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أجازه للقراء من الصحابة أن يقرئوا به من اللهجات يستوى هو وما نزل عليه النص القرآني من لغته المثالية في التلاوة باي منهما. وكلاهما سنة متبعة.

أما ما كان وراء هذه اللهجات، من عجز ذاتي فكانت رخصته إقرارا من الرسول،

---

(٩٣) أنظر اعجاز القرآن للرافعي / ٦٨ .
(٩٤) الاتقان ١/ ١٣١ .
(٩٥) المرشد الوجيز / ٩٦، ٩٧ .
(٩٦) د. ابراهيم أنيس - اللهجات / ٥٧ .
(٩٧) راجع المرشد / ١٠١، ١٣١ .

لا إقراء وهي رخصة مؤقتة تزول بزوال مقتضياتها، متى قدر أصحابها على الآداء الأمثل بالمران والتعلم (٩٨)

وقد ضبط الرسول صلى الله عليه وسلم، مدى التيسير بما لم يبلغ به العجز ـ ذاتيا أو لهجيا ـ إلى اختلال المعنى المنزل.

ولعل هذا المعيار هو ما جعل ابن مسعود رضي الله عنه يرد قراءة الرجل الذي استحال لفظ (الأثيم) على لسانه إلى لفظ (اليتيم) بكسر الياء فقد أبدل الهمزة ياء، على حد قول الراجز حكيم بن معية الربعي:

لو قلت مافي قومها ، لم تيثم يفضلها في حسب وميسم

أراد (لم تأثم) مع ملاحظة أن (أثيم) على صيغة (فعيل) وهي من الصيغ التي تكسر أوائلها في لهجات بعض العرب.

كما أبدل الثاء تاء على حد قول السموأل أحد يهود بني خيبر.

ينفع الطيب القليل من الرزق
ولا ينفع الكثير الخبيت

وقد سأل الخليل، الأصمعي عن (الخبيت) في هذا فقال له: أراد الخبيث وهي لغة خيبر (٩٩)

فأحال الرجل باصطناع تلك اللهجات المعنى المنزل من الاثم إلى اليتم، وأراه ابن مسعود مبلغ اختلال المعنى فقال له: وأين اليتيم من الفاجر؟

وهذا ما يمكن أن تحمل عليه هذه الرواية لا على أنه أمره أن يضع كلمة (الفاجر) مكان (الأثيم). ومن قال غير ذلك فقد كذب على ابن مسعود. وأساء فهم الرخصة في الأحرف السبعة.

وقد نلتقي مع أحد الباحثين في أن رخصة الأحرف كانت مباحة في المشافهة لا في التسجيل. فلم يسجل الرسول صلى الله عليه وسلم سوى النص القرآني بلغته المثالية التي نزل بها، لاستحالة ضم اللهجات في رمز خطي (١٠٠) فضلا عن أن التسجيل في مكة سابق على رخصة الأحرف إذا لحظنا أن الرخصة بها شرعت في المدنية بعد الهجرة.

وينبغي في هذا المقام ـ إيضاحا لهذه القضية ـ أن نؤكد الفرق بين القرآن والقراءات في ضوء ما قرره الأقدمون من أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على النبي للهداية والاعجاز، والقراءات هي اختلاف كيفية الأداء لألفاظ الوحي المنزل (١٠١).

---

(٩٨) علوم القرآن د. الصالح / ١٠٨.
(٩٩) راجع في هذا الابدال لسان العرب مادة (أثم، وخبث) المجلد الأول / ٢٢، ٧٨١ اعداد يوسف خياط.
(١٠٠) تاريخ القرآن د. شاهين / ٥٤، ٥٥.
(١٠١) راجع البرهان ١/ ٢١٨.

وعلى هذا اذا تجاوز الاختلاف في النص القرآني كيفية الأداء إلى الحذف والاثبات كقوله تعالى: (تجري تحتها الأنهار) و (تجري من تحتها الأنهار) (١٠٢) بزيادة (من) او اختلاف الحروف كقوله تعالى: «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا و «فتثبتوا» (١٠٣) وثبت بالتواتر فهو من القرآن، لا من القراءات ويحمل على انه نزل بالامرين جميعا، وسجله النبي على الصورتين ليقرأ احدهما على البدل من صاحبه (١٠٤) ومن ثم كانت تسمية مثل هذه النصوص بالقراءات غير دقيق.

ومن ثم كان ما أشير إليه من وجوه الخلاف التي صنفوها تفسيرا للأحرف السبعة إما أن تنتظمه اللهجات كاختلاف الحركات في بنية الكلمة أو بعض الاعراب، وإما أن يكون قرآنا ثبت بالتواتر فهو من الوحي المنزل ابتداء غير مرتبط بحديث الاحرف السبعة، وإما أنه لم يثبت تواتره، فلا يكون من القرآن ولا من قراءاته.

وفي ضوء هذه الحقائق تكون رخصة الأحرف السبعة مقصورة على طرق الاداء، وهذا الأداء ليس إلى غايته من الحرية بل هو موقوف على إقراء النبي، أو إقراره. ومشروط بالا يحيل معنى منزلا.

وان هذه الرخصة لا علاقة لها بالنص القرآني على نحو ما ذهب اليه المستشرقون من حرية التصرف فيه بابدال اللفظ بمرادفه، أو زيادة في النص أو نقص منه، أو مخالفة في نظمه وترتيبه مما أطلقوا عليه نظرية (القراءة بالمعنى) وان نسبة هذه المرويات الى القراءات وهْمٌ روج له المستشرقون لينالوا من القراءات، وما هي من القراءات في شيء لأنها ليست اختلافا في الاداء، ولا هي أيضا من القرآن لأنها ليست بمتواترة القرآنية.

وإذا انتفت عن هذه المرويات قرآنيتها فلا موضع لها إذا في الدرس القرآني إلا على أنها وجوه من التفسير - إن صحت روايتها - زادها أصحاب هذه المخطوطات من الصحابة رضوان الله عليهم بجانب النص القرآني لبيان مجمل، أو تقدير محذوف، أو تفسير لفظ، بمقتضى فهمهم لأسباب النزول ومقاصد التشريع.

غير أن هذا العمل - على نبل مقصده - قد ترك آثارا سلبية على النص القرآني حين توهم ورثة هذه المخطوطات، أو الآخذون عنها أن كل ما فيها هو من ألفاظ الوحي المنزل.

وكم كان مسيئا إلى تاريخ القرآن أن تشيع نسبة هذه الاضافات إلى الوحي في كتب الأقدمين على أنها من الأحرف السبعة، ويتناقلها المحدثون دون تمحيص (١٠٥).

بقي أن نشير إلى وجوه القراءات الناشئة عن رسم المصحف بسبب خلوه من (النقط والشكل) على حد ما زعمه المستشرقون لنضعها في موضعها الصحيح من الدرس

---

(١٠٢) التوبة / ١٠٠.
(١٠٣) الحجرات / ٦.
(١٠٤) المرشد الوجيز / ١٣٨.
(١٠٥) راجع كتابنا من قضايا القرآن / ٧٦.

القرآني. ولا يتأتى لنا ذلك إلا إذا عرفنا ابتداء أن الخلو من النقط كان لاختصار إثبات التنزلات المتعددة للنص القرآني في لفظ واحد إذا احتملها رسم واحد مثل (تبلو، وتتلو) إذا تصورت الرسم بدون نقط، أما ما لم يحتمله رسم واحد فقد فرق على المصاحف فأثبت في بعضها على صورة، وفي بعضها الآخر على صورة أخرى (١٠٦)

وكان خلوه من (الشكل) وهو ضبط الكلمة سواء في بنيتها التصريفية أو حركتها الاعرابية، ليتسع لوجوه الأداء المختلفة باختلاف اللهجات، وهو ما قصرنا عليه فهم الاحرف السبعة - حتى لا يضيق على الناس ما وسع الله به عليهم من رخصة التيسير في الأداء باختلاف اللهجات وصار فينا سنة متبعة يسعنا كما وسع السابقين وذلك مثل قوله تعالى (أو جذوة من النار) بفتح الجيم لأهل الحجاز وبها قرأ عاصم، وبالضم لبني تميم وبها قرأ حمزة، وبالكسر لأسد وبها قرأ باقي السبعة (١٠٧)

ولم يترك عثمان رضي الله عنه النص القرآني ولا قراءته لهوى الناس، بل أرسل مع كل مصحف مقرئا له فكان زيد بن ثابت مقرئا (للمدني)، وعبدالله بن السائب مقرئا (للمكي) والمغيرة بن شهاب مقرئا (للشامي) وأبو عبدالرحمن السلمي مقرئا (للكوفي)، وعامر بن عبدالقيس مقرئا (للبصري) (١٠٨)

وكان ذلك ضروريا لأمرين:

الأمر الأول: مخافة أن ينشىء الرسم وجوها من الأداء ليست مرادة بسبب ما بين الرموز والأداء من تفاوت في بعض الألفاظ مثل (والأميين) فقد رسمت (والأمس) بياء واحدة (١٠٩) ومثل النبيين) فقد رسمت (الس) بياء واحدة (١١٠) ومثل (لأذبحنه) فقد رسمت (لا أذبحنه) بزيادة ألف (١١١)

ومثل (والسماء) بنيناها بأيد) فقد رسمت (بأسد بيائين) (١١٢)

وتبلغ عدة هذه الالفاظ قرابة (مائتين واربعين لفظا) (١١٣).

الأمر الثاني: حمل أهل كل مصر على أن يقرءوا مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرءون قبل وصول المصحف إليهم مما يوافق خط المصحف. وأن يتركوا من قراءتهم التي كانوا عليها: مايخالف خط المصحف. فترك الناس من القراءات مايبدو عند الأداء مخالفا لرسمه بحكم ماكان يقضي به قانون اللهجات العربية من إيثار بعض

(١٠٦) راجع كتاب المصاحف / ٤٠ - ٤٩.
(١٠٧) البحر المحيط ٦/ ٣٢٢.
(١٠٨) راجع مناهل العرفان ١/ ٣٩٦.
(١٠٩) ٣/ ٢٠.
(١١٠) ٣/ ٢١.
(١١١) ٢٧/ ٢١.
(١١٢) ٥١/ ٤٧.
(١١٣) راجع كتاب المصاحف / ١٠٥ - ١١٦..

الأصوات على بعض. كإيثار البدوي للأصوات الواضحة في السمع على مادونها فإذا قرأ الحضري:
(من بقلها وقثائها وفومها) بالفاء.
قرأ البدوي (من بقلها وقثائها وثومها) بالثاء
والاولى لغة أهل الحجاز، والثانية لغة بني تميم (١١٤)
وهكذا ترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثماني إيثارا للعافية ووحدة الكلمة، وتقريبا بين اللهجات (١١٥)

ووسمت هذه القراءات بالشذوذ في اصطلاح القراء لمخالفتها رسم المصحف ـ على الرغم من صحتها في ذاتها سندا وبذلك صار المصحف حكما على القراءات لا منشئا لها كما يدعي المستشرقون.
وظل الناس يقرءون في تلك المصاحف ويأخذون عنها قرابة أربعين سنة وذلك من زمان عثمان رضي الله عنه الى أيام عبدالملك بن مروان فكثر التصحيف على ألسنتهم باعتمادهم على المصحف دون الرجوع إلى الثقات من القراء، فظهرت وجوه من الأداء (مصحفه) قرأ بها أهل الأهواء والبدع من الرافضة كقراءة بعضهم (وما كنت متخذ المضلين عضدا) (المضلين) بالتثنية: يريد أبا بكر وعمر ـ وقرأ العابثون من أهل الجهالة، وجوها واضحة العبث كقول بعضهم:

ـ فغررنا بثالث، مكان (فعززنا بثالث).
ـ جعل السقاية في رجل اخيه. مكان (رحل اخيه).
ـ ذلك الكتاب لا زيت فيه. مكان (ذلك الكتاب لا ريب فيه) كما قرءوا وجوها تشتبه بالمروى من القراءات، كقراءة بعضهم.
فاليوم ننحيك ببدنك، مكان (ننجيك ببدنك) بالجيم من النجاة.
ـ تقية الله خير لكم، مكان (بقية الله خير لكم) بالباء الموحدة (١١٦)
وبقيت هذه الوجوه ـ على الرغم من شيوعها على بعض الألسنة، غير معترف بها في الدرس القرآني: إما لوضوح العبث فيها، وإما لافتقارها إلى الرواية الصحيحة.

فكيف يتأتى لأي مستشرق ـ يحترم عقله ـ أن يتصور هذا العبث بعض قراءات القرآن؟
وكيف لهم جميعا أن يتغافلوا عن منهج القراء في ضبط مسيرة القراءات وتاريخها. وتمييز صحيحها من فاسدها؟ وهو منهج بلغ من دقته ألا يقبلوا من القراءات ـ وان وافقت الرسم ـ إلا ما أيدها سند صحيح، ولا يكفي السند حتى توافق العربية..

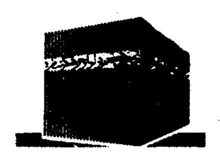
---

(١١٤) القرطبي ١/ ٣٣١، لهجات/ أنيس ١١٢.
(١١٥) مقدمة حجة قراءات أبي زرعة / ١٠، الابانة / ١٠، المرشد/ ٥٣، ٥٤.
(١١٦) تاريخ القرآن / شاهين/ ٢١٤ نقلا عن مصدره: كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني.

وقد تضامت هذه المقاييس الثلاثة وهي (موافقة الرسم وصحة السند، وموافقة العربية) وتمكنت على يد كبار القراء مع بداية حركة الاختيار والتأليف في القراءات فشكلت ضابطا صحيحا في تمييز القراءات يعول عليه في قبولها اوردها.

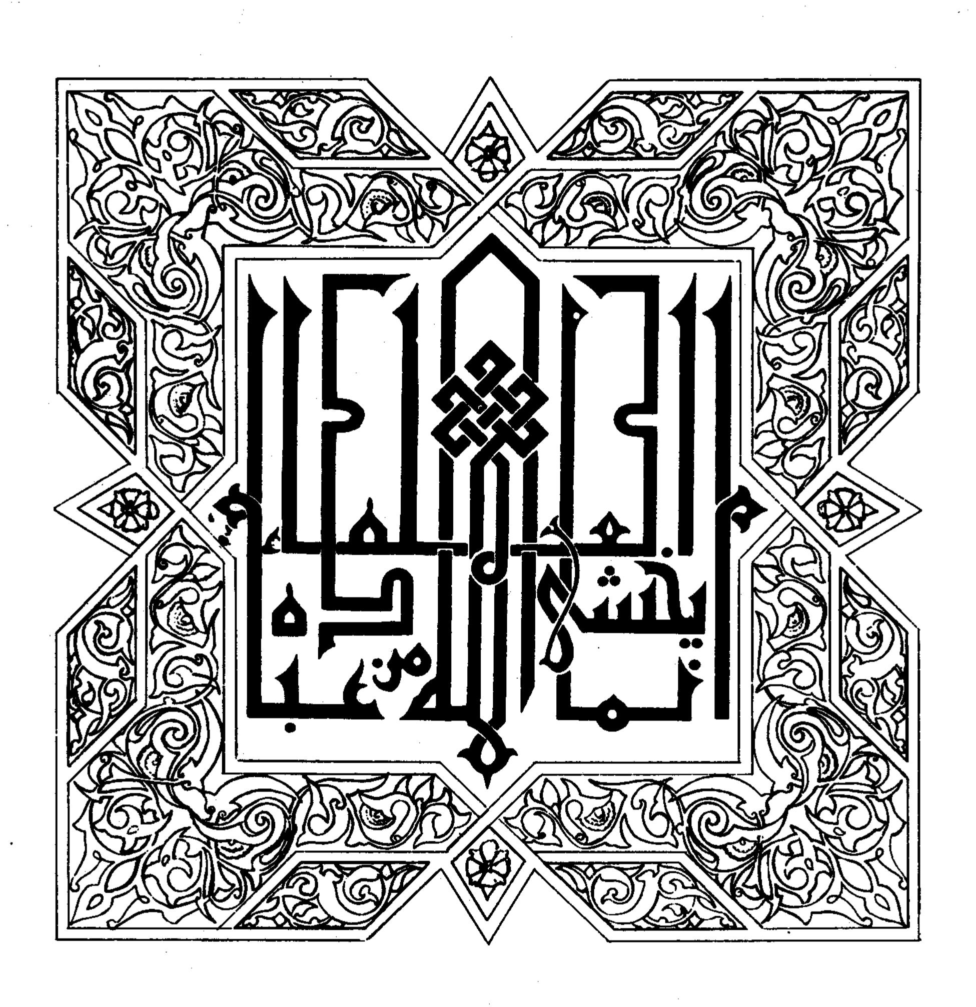
فبعد هذا وذاك تبقى شبهة لدى منصف حول ما عرضنا له من تاريخ القرآن والقراءات؟

لا أحسب ذلك إلا عند مكابر، وحسبه أن يبوء بإثمه.



المراجع الأساسية
مرتبة حسب ورودها بالبحث

١ ـ مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح.
٢ ـ تاريخ القرآن، أبو عبدالله الزنجاني.
٣ ـ الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي.
٤ ـ دراسات في القرآن، د. السيد خليل.
٥ ـ كتاب المصاحف: لابن أبي داود، آرثر جفري.
٦ ـ القرآن: بلاشير ـ ترجمة رضا سعادة.
٧ ـ أثر القرآن في الدراسات النحوية: د. عبدالعال سالم مكرم.
٨ ـ من قضايا القرآن: د. اسماعيل الطحان.
٩ ـ عن القرآن: محمد صبيح.
١٠ ـ القرآن المجيد: محمد عزة دروزة.
١١ ـ لطائف الاشارات لفنون القرءات: شهاب الدين القسطلاني.
١٢ ـ البرهان في علوم القرآن: للزركشي.
١٣ ـ إرشاد الساري لشرح البخاري: لشهاب الدين القسطلاني.
١٤ ـ عمدة القاري شرح البخاري: للعيني.
١٥ ـ المدخل الى القرآن: بلاشير.
١٦ ـ تاريخ القرآن: د. عبدالصبور شاهين.
١٧ ـ تفسيري الطبري: تحقيق محمود محمد شاكر.
١٨ ـ المرشد الوجيز: لأبي شامة.
١٩ ـ المحتسب: لابن جني.
٢٠ ـ تفسير البحر المحيط: لأبي حيان.
٢١ ـ تفسير القرطبي: للقرطبي.
٢٢ ـ تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة.
٢٣ ـ فقه اللغة: د. صبحي الصالح.
٢٤ ـ في اللهجات العربية: د. ابراهيم أنيس.
٢٥ ـ اعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي.
٢٦ ـ لسان العرب: ابن منظور.
٢٧ ـ حجة القراءات: لأبي زرعة.



إنما يخشى الله من عباده العلماء